



معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2023/02/15

تاريخ القبول: 2023/06/15

Printed ISSN: 2352-989X

Online ISSN: 2602-6856

الشعر السياسي في الأدب المغربي القديم خلال العصر الموحدى

*Political Poetry in Ancient Maghreb Literature during elmohad era*ط.د سميرة رواز¹، د. لطيفة حجار²¹جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله، مخبر تحليل الخطاب الصوفي (الجزائر)،samira.rouaz@univ-alger2.dz²جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله، مخبر تحليل الخطاب الصوفي (الجزائر)،latifa.hadjar@univ-alger2.dz

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع الشعر السياسي في الأدب المغربي القديم خلال العصر الموحدى، وتهدف من خلالها إلى الكشف عن أهم القضايا السياسية التي برزت في الشعر، وكيف تأثر الشعراء بالفكر السياسي الجديد للسلطة ووظفوه في قصائدهم، معتمدين في ذلك على المنهج الوصفي.

ولقد توصلنا إلى أن أغلب الشعر السياسي في تلك الفترة كان في المدح ووصف الحروب والفتن، وأنه كان مصبوغا بالعقيدة والخلفيات الإيديولوجية الدينية السياسية لنظام الحكم.

الكلمات المفتاحية: شعر سياسي، أدب مغربي، موحدى، مدح.

ABSTRACT

The present study deals with the topic of political poetry in the ancient Maghreb literature during the Almohad era. Besides, we are aiming to reveal, through the same, the most important political issues that have emerged in poetry, and how poets were affected by the new political thought of the authority and way as per which they employed it in their poems, hence adopting the descriptive approach. More to the point,

we have concluded that most of the political poetry of that specific period was focused on praise and description of wars and seditions, which has alike been characterized by the creed and the religious and political ideological backgrounds of the ruling regime.

Keywords: Political poetry, Maghreb literature, Almohad, Praise

1. مقدمة:

نجد الموحدون في تأسيس حضارة عظيمة في بلاد المغرب، ولا بد أن هذه المرحلة كانت الأكثر ازدهارا وانتعاشا ليس على الصعيد السياسي فقط وإنما على الصعيدين الثقافي والأدبي أيضا، واللافت هو أن سياسة الموحيدين قد قامت على دعائم دينية ومذهبية متنوعة، وعليه لن يكون من الغريب أن تفرز لنا هذه الفترة إرثا ثقافيا وحضاريا ذا خصوصية. بناء على ذلك ارتأينا أن نركز في دراستنا هذه على الشعر السياسي ونحاول من خلالها الإجابة عن الإشكالية الآتية : ما علاقة الشعر بالسلطة ؟ و ما مدى استجابة الشعراء لنداء الحكم الموحيدي ؟.

إن المتوقع أن يكون الشعر قد تأثر بالاتجاه العام الذي كان يؤثر نظام الحكم الموحيدي ، وأن يكون أيضا خاضعا للقيم الدينية والسياسية التي اتخذها الخلفاء نهجا لحكمهم ، لذلك سنهدف من خلال هذه الدراسة إلى الكشف عن الجوانب السياسية التي تجلت في الشعر وإمالة اللثام عن بعض جزئيات هذا الموضوع الذي لم يحظ بعد بدراسة شاملة.

وآثرنا أن نقسم دراستنا إلى مقدمة ومبحثين تطرقنا في الأول منه إلى ظروف قيام دولة الموحيدين وازدهار الحياة الثقافية والأدبية ، وفي الثاني إلى الشعر السياسي الذي برز في قصائد المدح وشعر الحروب، ثم أردفناها بخاتمة نعرض فيها أهم النتائج المتوصل إليها .

2. قيام دولة الموحيدين (في القرن السادس الهجري) وازدهار الحياة الثقافية والأدبية:

لم يستطع الخلفاء المرابطون في أواخر عهدهم أن يحافظوا على المكانة التي كان يتمتع بها حكمهم من قبل، فما لبثوا مدة حتى نهش الضعف أركان دولتهم العتيدة، وأطاح الفساد والانحلال بأسوار بنيانها الشامخ ومجدها التليد الذي استمر قرابة القرنين من الزمن.

و استطاع المهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي بفضل حنكتهما وحسن تديرهما للأمور أن يسلبا الحكم من المرابطين وينقذا المغرب من ورم الوهن الذي أصابه، فقامت دعوتهما على أساس ديني يتوافق مع النفسية المغاربية التي يغلب عليها التدين والتمسك بالعقيدة والسنة.

كما أعانت فكرة المهدية على كسب ثقة المغاربة في شرعية قيام دولة الموحيدين، إذ لعبت السياسة الموحدية دورها كاملا في إقناع الناس بكون ابن تومرت هو مهديهم المنتظر وزادهم قناعة ما رأوا فيه من نصرة للدين ورباطة للجأش.

وفي هذا السياق يذكر المراكشي في كتابه المعجب أن ابن تومرت كان يقول لمناصريه ما على وجه الأرض من يؤمن بإيمانكم وأنتم العصاة المعنيون بقوله ﷺ:

"لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي الله أمر الله وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعبسى بن مريم ، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة" (المراكشى ع،، 1963، صفحة 255. 256).

والاعتماد على مثل هذه الأحاديث الموضوعية بلا شك في التنبؤ بالمهدية ليس أمرا جديدا، إذ سبق وأن مارس مثل هذه الدعاية أبو عبد الله الشيعي حين دخل المغرب ولقب بالمهدي، وكذلك الأمر بالنسبة للشعر فإننا نعثر في العهد الفاطمي على كثير من القصائد التي تنبأ بظهور المهدي وبالنصر الذي سيحققه المغاربة في الفتوحات تحت رايته. غير أن انتصار الدولة الموحدية على الدولة المرابطية لم يكن سياسيا فقط، وإنما استطاعت دولة الموحدين أن تنتصر لنفسها ثقافيا أيضا والفضل راجع أيضا إلى جهود ابن تومرت الذي كان رجلا مأخوذا بالثقافة والعلم، وخليفته من بعده، عبد المؤمن بن علي الذي سار على نهج معلمه. وحرك باكورة الثقافة المغربية حتى غدا المغرب مركز إشعاع علمي يقصده الوافدون في فاس ومكناس وتلمسان وغيرها من مدن العلم.

وإذا كان الموحدون لم يخالفوا السياسة المرابطية في إقامة الدعوة على أس ديني كما أسلفنا القول فإنهم خالفوه حين دعوا العلماء إلى انتهاز العقل في النظر إلى الأمور الفقهية وفتحوا باب الحرية في التفكير في حدود ترضي الكثير من العلماء الذين لم ترقهم سياسة المرابطين من قبل.

وكما انفسخ المجال أمام علوم الدين اتسع المجال كذلك أمام العلوم الأخرى، "فلم يعد التصوف منكرا كذي قبل...، وظهر جماعة من الصوفية الكبار أصحاب النزعات الفلسفية وانبثت مذاهبهم المختلفة في الناس" (كنون، 1971، صفحة 179)، كما نشط علم النحو والعروض، وانبثت علم الكلام، والتاريخ وكثرت التأليف فيها، وإن كانت لم تصل إلينا كلها بسبب ضياعها أو بقائها في دهايز المكتبات تنتظر من يعود إليها بالتحقيق ويكشف فيها ما غاب عنا طيلة القرون السابقة.

أما الشعر فبلغ أوجه في عهد الموحدين، وكفاه شأنا أنه استطاع أن يدخل البلاط من بابه الواسع ويحظى بالعناية من قبل الملوك، وصار الشعراء حسب ما يروي المؤرخون يتوافدون على القصور ليلقوا قصائدهم فيها وكان الشاعر منهم يثاب على مديحه بالألف والألفين (كنون، 1971، صفحة 226).

لعل هذا ما يفسر كثرة قصائد المدح في هذا العصر، إذ أغدق الملوك على الشعراء بالمال والعطايا، فتقربوا منهم وأكثروا مدحهم رغبة في التكسب.

وما كان هذا ليحدث لو لم يكن ملوك وأمراء الدولة الموحدية على قدر عال من الثقافة والتمكن من اللغة العربية، بل إننا نجد منهم من كان عالما أديبا وشاعرا، فلا عجب أن يزدهي بلاطهم بالشعر، ويتزعموا هم بالاستماع إليه في أجواء احتفالية صنعتها انتصاراتهم الكثيرة والساحقة في الأندلس والمغرب ضد الإسبان، وكل من سولت لهم أنفسهم الإغارة أو التمرد على الخلافة.

ويذكر صاحب المعجب احتفالية بيعة أهل الأندلس للخليفة عبد المؤمن بن علي وكيف أنه "نزل الجبل المعروف بجبل طارق وسماه هو بجبل الفتح فأقام به أشهراً وابتنى قصوراً عظيمة، والمدينة الباقية غالى اليوم ووفد عليه في هذا الموضع وجوه أهل الأندلس للبيعة كأهل مالقة وغرناطة ورندة وقرطبة واشبيلية وما إلى هذه البلاد، وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدو والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله، واستدعى الشعراء، وكان على بابهم طائفة أكثرهم مجيدون، فكان أول من أنشده أبو عبد الله بن حبوس من أهل فاس قصيدة أجاد فيها ما أراد (المراكشي ع،، 1963، صفحة 282. 283):

بَلَّغَ الزَّمَانُ بِهَدْيِكُمْ مَا أَمَلَا وَتَعَلَّمْتُ أَيَّامُهُ أَنْ تَعْدِلَا

وَبَحْسِهِ أَنْ كَانَ شَيْئًا قَابِلًا وَجَدَ الْهِدَايَةَ صُورَةً فَتَشَكَّلَا "

و"أنشده ابن الشريف المعروف بالطليق المرواني: "مَا لِلْعِدَا جُنَّةٌ أَوْقَى مِنَ الْهَرَبِ"

فقال عبد المؤمن إلى أين رافعا بها صوته فقال الشاعر:

أَيْنَ الْمَقَرُّ وَخَيْلُ اللَّهِ فِي الطَّلَبِ

وَأَيْنَ يَذْهَبُ مَنْ فِي رَأْسِ شَاهِقَةٍ وَقَدْ رَمَتْهُ سِهَامُ اللَّهِ بِالشُّهُبِ

حَدَّثَ عَنِ الرُّومِ فِي أَقْطَارِ أَنْدَلُسٍ وَابْحَرُ قَدْ مَلَأَ الْعَبْرَيْنِ بِالْعَرَبِ

فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن بمثل هذا تمدح الخلفاء!"(المراكشي ع،، 1963، صفحة 285).

كذلك لم يكن من جاءوا بعد عبد المؤمن بن علي أقل اهتماما بالشعر، ففي عصر يعقوب المنصور يذكر المقرئ أنه في معركة الأراك (591هـ)، اجتمع في حضرته عدد من الشعراء "فلم يمكن لأكثرهم أن ينشد كل إنسان قصيدته، بل كان يختص منها بالإنشاد البيتين أو الثلاثة المختارة...، وانتهت رقاع القصائد وغيرها إلى أن حالت بينه وبين من كان أمامه لكثرتها"(المقرئ، د.ت، ج4، صفحة 172).

والحقيقة أننا إذا عدنا إلى مادة الشعر الموجودة بين أيدينا، فإننا لا نعثر على هذه الكثرة المفرطة التي يصفها لنا صاحب المعجب والنفخ في الشعر، إذ الكثير من القصائد التي وصلت إلينا جاءت مبتورة أو في شكل مقطوعات قصيرة وقد نجد أنه لا يذكر للشاعر الواحد أحيانا إلا بيتا واحدا أو اثنين، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يمكن إنكار حقيقة أن يكون العصر الموحد هو العصر الذهبي للأدب والأكثر غزارة بالشعر والشعراء مقارنة بالعهود السابقة.

3. الشعر السياسي:

يقصد به "ذلك الشعر الذي يتصل بنظام الحكم، سواء كان دعوة لنظام دون سواه أو في شكل رسائل إلى المناوئين أو الثائرين، أو كان موقفا تجاه تصرف حاكم أو أمير أو وال من الولاة مما يتصل بأحوال الرعية...ومن ثم

سيدخل في إطار الشعر السياسي، رسائل الاستنفار، وشعر الوعد والوعيد من جانب الحكام أو الولاة والقادة، وقسم كبير من فخرهم، وبعض ما مدحهم أو هجاهم به الشعراء (بدوي، 1983، صفحة 36).

كثر الشعر السياسي في المغرب وتلون بالأحداث السياسية التي مرت بها الدول الإسلامية على مر العصور، فكان مرآة عاكسة للصراعات والحروب التي كان يخوضها الحكام ضد أعدائهم من الكفار أو حتى الدول الإسلامية الأخرى، إذ كثيرا ما كانت تسعى كل واحدة منها إلى نفس سلطان الدول الأخرى.

ولا بد من الإشارة إلى أن الشعر السياسي "لم يستطع أبدا أن يكون غرضا شعريا مستقلا بذاته. إنه ميثوث في الأغراض التقليدية الأخرى (حجار، 2014، صفحة 07)"، وإن نحن عدنا إلى الشعر السياسي في المغرب خلال العصر الموحد سنجده ينقسم في أغلبه إلى قسمين أساسيين هما: شعر المدح، وشعر الحروب والفتن:

1.3 شعر المدح:

لعل أول شاعر علا نجمه وسطعت شمسه في سماء الخلافة الموحدية : ابن حبوس، وهو شاعر مخضرم قدمه المرابطون على الشعراء ثم لاحقوه، بسبب حماقات بلغتهم عنه حسب صاحب المعجب (المراكشي ع.، 1963، صفحة 283)...، فاضطر للهرب منهم إلى بلاد الأندلس ومكث فيها حتى قامت دولة الموحدين الذين أعادوا رفع مكانته بينهم فكان لهم الشاعر المادح والمسجل لانتصاراتهم ولسان الدولة الذي ينافح ويدافع عن أفكارهم الدينية والسياسية.

ومن أول قصائده التي وصلت إلينا ما قاله في مدح الخليفة عبد المؤمن بن علي عند حصاره لبجاية عام 574هـ (التجيبى أ.، 1939، صفحة 1. 2):

عَصَفَتْ بِدَعْوَتِكَ الرِّيَاحُ الهُوجُ وَسَطًا بِأَمْرِكَ ذَابِلٌ ووشيجُ
وَتَقَدَّمَكَ إِلَى الْعَدُوِّ مَهَابَةً يَشْقَى بِهَا فِي سَدِّهِ يَاجُوجُ

وقوله في قصيدة أخرى (التجيبى أ.، 1939، صفحة 6):

مَنْ الْقَوْمُ بِالْغَرْبِ تُصْغِي إِلَى حَدِيثِهِمْ أَذُنُ الْمَشْرِقِ
جَرُّوا وَالْمَنَآيَا إِلَى غَايَةٍ فَلَمْ يَسْبِقُوهَا وَلَمْ تَسْبِقِ
بِأَيْدِيهِمُ النَّارُ مَشْبُوبَةً فَمَهْمَا تُصِيبُ بِأُطْلَافٍ تُحْرِقِ
يَقْوُدُهُمْ مَلِكٌ أَرْوَعُ تَفَرَّدَ بِالسُّؤْدُدِ الْمُطْلَقِ
خَيْرُهُ اللَّهُ مِنْ آدَمَ فَمَا زَالَ مُنْهَدِرًا يَرْتَقِي
إِلَى النَّاصِرِيَّةِ سِرْنَا مَعًا وَلَمَّا تَفْتَنَّا وَلَمْ تُلْحَقِ

والقصيدة كما يبدو قامت على السهولة في الألفاظ والبساطة في التصوير، إذ لا نجد في هذا النص ما يدل على نضج الشاعر الفنى واكتمال أساليه التعبيرية، غير أننا نعثر له في بعض قصائده الأخرى على الصور الجميلة والأساليب الفنية الجيدة، كلا ميته تلك التي مدح بها الخليفة عبد المؤمن والتي سبق إيراد بيتين منها حين أوردنا وصف المراكشي لبيعة الأندلس.

أو قوله في رائيته (التجبي أ.، 1939، صفحة 2):

أَلَا أَيُّهَا ذَا الْبَحْرِ جَاوَزَكَ الْبَحْرُ وَخَيْمٌ فِي أَرْجَاءِكَ النَّفْعُ وَالضَّرُّ
وَجَاشَ عَلَى أَمْوَالِكَ الْعَقْلُ وَالْحِجَى وَفَاضَ عَلَى أَعْطَافِكَ النَّهْيُ وَالْأَمْرُ
وَسَالَ عَلَيْكَ الْبَرُّ خَيْلاً كَمَا تَهَا إِذَا حَاوَلْتَ غَرْوًا فَقَدْ وَجَبَ النَّصْرُ

وفيها قوله أيضا (التجبي أ.، 1939، صفحة 3):

فَأَنْتَ خَلِدُ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ عَنُوءَ وَتَخْدُمُهُ فِي أَمْرِ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ

فالشاعر يرتفع بممدوحه حتى يجعله بحرا في عظمته ويجعل الشمس والقمر وكل ما في الأرض مسخرا لخدمته، ولعل الشاعر لو لم يكن مقيدا بالسير في اتجاه محدد في أوصافه لأظهر براعة أكبر في الشعر، لكنه كان مجبرا على إبراز الجوانب التي يؤمن الموحدون أنهم يتصفون بها، وكان يحاول أن يخدم سياستهم التي قامت على الدين والدعوة إلى تحرير العقل ونشر العلم.

إن ابن تومرت الذي كان يفكر ويخطط لتشكيل دولة جديدة تقوم على جملة من الأفكار والمبادئ المستقاة من "مذاهب وعقائد مختلفة : كالأعتزال والأشعرية والشافعية والظاهرية لم ينس أن يخلق لخطابه التجديدي الإصلاحي السياق الذي يؤطره (الطاهري، 2005، صفحة 35. 36).

والشعر باعتباره أسمى أنواع الخطاب الأدبي، وأعظمها تأثيرا ظل أداة ووسيلة مهمة في يد السلطة، وقصيدة المدح الموحدية لم تفرغ أبدا من حملتها الإيديولوجية المصبوغة بالفكر التومرتي الجديد، فقد استندت على مجموعة من الأطر المرجعية الدينية التي وضعها ابن تومرت انطلاقا من أفكاره وثقافته الواسعة، والتي أسست بدورها فكرا سياسيا فريدا من نوعه، فكانت التجربة الشعرية عند الشاعر المادح ترتكز على جملة من الأسس العقدية المنبثقة عن رؤية محددة وواضحة للسلطة...

من هنا "نشأ ذلك الارتباط الوثيق بين مكونات الخطاب العقدي... وبين السلطة التي تحكم، وتسعى لنشر خطابها العقدي عبر الشعر خاصة، والفنون الأدبية الأخرى عامة (الوردي، 2016، صفحة 56)".

ويرى الجراوي باعتباره أحسن ممثل لشعراء المدح في العصر الموحدى، وأفضل مجسد للخطاب العقدي السياسي الموحدى، إذ كرس الشاعر أغلب شعره للإشادة بالخلفاء الموحدين والاحتفاء بأدوارهم البطولية المقدسة انطلاقا من

صفات وخصال مقدسة لا تصدر إلا من أشخاص متفردين ، ولا تتوفر عند غيرهم، يقول في إحدى قصائده مادحا المنصور(الجرأوى أ.، د.ت، صفحة 25):

إِمَامٌ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الْخَلْقِ بَاهِرٌ وَمَرْتَبَةٌ تَنْحَطُّ عَنْهَا الْمَرَاتِبُ
مَنَاقِبُهُ مِثْلُ الْكَوَاكِبِ كَثْرَةً وَنُورًا أَلَّا لِلَّهِ تِلْكَ الْمَنَاقِبُ
لَهُ نِسْبَةٌ قَبَسِيَّةٌ قُدْسِيَّةٌ تُقَرُّ لَهَا بِالْمَعْلُوباتِ مُوَاهِبُ

إن هذه الأبيات تعبر عن رؤية السلطة الموحدية في الحكم، فالشاعر يصف الممدوح بالإمام باعتبار أن الإمامة أهم ركائز السلطة عند الموحدين.

عرف ابن تومرت المهدي الإمامة بكونها ركنا من أركان الدين وعمدة من أعمدة الشريعة(اليطري، 2021، صفحة 112)، وهو تعريف لا يكاد يختلف عن ما يذهب إليه الشيعة في قولهم بأن الإمامة أصل الدين (اليدري، 2021، ص 112).

ولذلك سنجد أن لفظ الإمام يتكرر في أكثر من قصيدة عند الجراوى، يقول في قصيدة أخرى مادحا الناصر (الجرأوى، صفحة 7):

يَا إِمَامَ الْهُدَى مَلَأْتَ جَمَالًا وَجَلَالًا عُيُونَنَا وَالْصُدُورَا
كُلُّ نُورٍ لِلشَّمْسِ وَالْبَدْرِ يَبْدُو أَنْتَ أَصْلٌ لَهُ وَمِنْهُ اسْتُعِيرَا
دُمْتَ لِلدِّينِ عِصْمَةً وَمَلَاذًا وَلِأَعْدَائِهِ مُبِيدًا مُبِيرَا

فالإمام هو منبع الجمال والنور وعاصم الدين من الأعداء، وهو الرجل الذي تتجسد فيه كل كرامات الأتقياء، بل إنه المجسد لحكم الله في الأرض، لذلك تأتي أقدار الله كما يريد هو ويشاء.

يقول أحمد بن محمد البلوي الإشبيلي مادحا المعتضد بالله(المراكشي أ.، د.ت، ج 1، صفحة 458. 459):

وَأَبْقَيْنَا أَنْ نَصَرَ اللَّهَ نَصْرَكُمُ فَالْفَتْحُ مَرْتَقِبٌ وَالنَّصْرُ مُنْتَظَرُ
إِرَادَةُ اللَّهِ تُمِضِي مَا تُرِيدُ إِذَا أَمَرْتَ فَالْفَلَكَ الدَّوَارُ مُؤَمَّرُ
رَمَى بِكَ اللَّهُ أَهْلَ الْكُفْرِ تَسَحُّتُهُمْ وَأَنْتَ مُعْتَصِدٌ بِاللَّهِ مُنْتَصِرُ
فَاللَّهُ رَامٍ وَأَنْتَ السَّهْمُ فِي يَدِهِ وَالْقَوْسُ طَائِفَةُ التَّوْحِيدِ وَالْوَتَرُ

ويقول الجراوى مادحا المنصور(الجرأوى، الديوان ، صفحة 25):

هُوَ الْأَمْرُ أَمَرَ اللَّهُ لَيْسَ يَفُوتُهُ مُنَاوٍ وَلَا يَنْأَى عَلَيْهِ مُنَاصِبُ

وَمَا هَارِبٌ مِنْهُ وَلَوْ بَلَغَ السُّهَاءُ بِنَاجٍ، وَهَلْ يَنْجُو مِنَ اللَّهِ هَارِبٌ

ولأن الحاكم هو خليفة الله والرسول ﷺ في الأرض وجبت على الناس طاعته والانقياد لأوامره دون مرء أو جدال.

يقول الجراوي في إحدى قصائده (الجراوي، صفحة 72):

مَنْ لَيْسَ مُعْتَقِدًا إِيحَابَ طَاعَتِكُمْ فَلَيْسَ يُعْنِيهِ إِيْمَانٌ وَ تَوْحِيدُ
رِضَاكُمُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، وَعَذْلُكُمْ ظِلٌّ ظَلِيلٌ عَلَى الْإِيَامِ مَمْدُودُ
دُمْتُمْ حَيَاةَ بَنِي الدُّنْيَا وَدَامَ لَكُمْ نَصْرٌ وَفَتْحٌ وَتَمَكُّينٌ وَتَأْيِيدُ

ويقول ابن حبوس : في عبد المؤمن بن علي (التجبي أ.، 1939 صفحة 2):

فَلَا أَنْتُمْ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُمْتَرَى فِيهِ وَلَيْسَ بِجَائِزٍ أَنْ يُجْهَلَ
وَلَا أَنْتُمْ سِرُّ الْإِلَهِ وَأَمْرُكُمْ مَلَأَ الْعَوَالِمَ مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا

إنه مقدس إلى درجة أنه جعل رحمة للعباد كالنبي ﷺ، فكما قال الله تعالى لنبيه الكريم ﷺ (القرآن الكريم : سورة الأنبياء ، الآية 70) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وقال الجراوي يمدح الناصر (الجراوي، د.ت صفحة 7):

شَاءَ إِسْعَادَنَا الْإِلَٰهَ تَعَالَى يَوْمَ تَقْوِيضِهِ إِلَيْكَ الْأُمُورَا
إِنَّمَا أَنْتَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَمَّتْ سَاكِنِي الْأَرْضِ مُنْجِدًا وَمُغِيرَا
أَوْجَدَ اللَّهُ مِنْكَ لِلدِّينِ عِزًّا وَمُعِينًا وَنَاصِرًا وَظَهِيرَا

أما المهدي فصفة تفرد بها ابن تومرت دون غيره من الخلفاء، وهي تنبؤ يقول بأن رجلا صالحا سيأتي آخر الزمن ليخلص الدنيا من الشرور والفساد والكفر الذي عم الأرض.

أحسن ابن تومرت استغلال هذه النبوءة ليحقق مآربه السياسية ويطيح بالمرابطين الذين أكثروا الجور والظلم أواخر عهدهم، فصدقهم الناس وساروا تحت عباءته، والشعر بدوره لم يتخلف عن التعبير والدعاية لهذه الفكرة، فجعلوا الإمام المهدي طوقا للنجاة وأصلا للهداية والفلاح...، يقول الجراوي (الجراوي، دت، صفحة 46):

عَصَوْا دَعْوَةَ الْمَهْدِيِّ وَهِيَ سَفِينَةٌ فَأَغْرَقَهُمْ طُغْيَانُهُمْ وَهُوَ طُوفَانُ

فدعوة المهدي أشبه بسفينة نوح عليه السلام، ينجو منها من سار في ركبها، ويغرق كقوم نوح من أبى الصعود فيها، والحكام الذين جاءوا بعده ورثوا منه الخلافة والهداية، فكانوا بذلك خير من ساس الدنيا والدين، وأفضل من حمى الإسلام من الأعادي والكفار، يقول الجراوى مادحا عبد المؤمن بن علي (الجراوى، صفحة 81):

أَخْلِيفَةُ الْمَهْدِيِّ دُمْتَ مُؤَيِّدًا بِاللَّهِ مِنْتَقِمًا مِنَ الْكُفَّارِ

تَرْمِي شَيْاطِينَ الْأَعَادِي فِي الْوَعَى بِرُجُومِ خَيْلٍ مِنْ سَمَاءِ غُبَارِ

ويقول في قصيدة أخرى يمدح عبد المؤمن بن علي (المصدر نفسه، صفحة 63، 64):

دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَارِثُ الْهُدَى وَجَامِعُ اشْتَاتِ الْعُلَى وَالْمَفَاخِرِ

وَأَحْزَمُ مَنْ سَاسَ الدِّيَانَةَ وَالْدُّنَا وَأَكْرَمُ مَأْمُولٍ وَأَحْلَمُ قَادِرِ

إِلَى أَمْرِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَنَهْيِهِ يَرْوُحُ وَيَغْدُو كُلُّ نَاهٍ وَأَمِيرِ

إِذَا نَامَتْ الْأَمْثَلُكَ عَمَّا يَهْمُهَا رَعَى الدِّينَ وَالْدُّنْيَا لَهُ طَرْفُ سَاهِرِ

فَلَا بَرَحَ الْإِسْلَامُ مِنْهُ مُؤَيِّدًا بِمَنْصُورِ رَايَاتٍ عَلَى الْكُفْرِ نَاصِرِ

هكذا يتجلى لنا كيف أفرز شعر المدح المبادئ السياسية الدينية السائدة خلال العصر الموحدى، وكيف قدم صورة موحدة عن نظام الحكم الذي عرف كيف يجعل الشعر وسيلة لإذاعة سياسته والدعاية لها.

ولا بد من الإشارة إلى أن قصيدة المدح لم تكن أبدا مستقلة وغرضا قائما بذاته، فقد امتزجت بشعر الحروب الذي لعب دورا مهما أيضا على الصعيدين السياسي والتاريخي لخلافة الموحدين.

2.3 شعر الجهاد والحروب:

كان لشعر الجهاد والحروب حضوره القوي في كتب المصنفين، فكان كثيرا كثرة الحروب والمعارك التي دارت في بلاد المغرب والأندلس، إذ واكب الشعراء الأحداث السياسية الواقعة في ذلك العهد وسجلوا لنا العديد من الوقائع والغزوات من خلال أشعارهم فأصبح الشعر إضافة إلى المصادر التاريخية يشكل وثيقة مهمة تفيد الدارسين في تاريخ المغرب وأدبه.

ومن الأحداث التي سجلها لنا الشعر الموحدى تلك الحروب التي دارت بين المسلمين والصليبيين والتي كان لها بالغ الأثر في نفوس الشعراء الذين راحوا يستغيثون بالخلفاء المغاربة أحيانا، ويفرحون بالنصر أحيانا أخرى مشيدين ببطولات القادة والجنود.

ومنهم من راح يدعو إلى الجهاد ونصرة الإسلام يستنهض القبائل ويستميل النفوس لإنجاد الأندلس، وفكها من بين مخالب الكفار بالالتفاف حول الخليفة والانضمام للجيش الموحدى.

نذكر من تلك الصرخات الشعرية الرنانة الدعوة التي وجهها الشاعر أبو عباس الجراوي إلى بني هلال في إحدى قصائده، يقول فيها (الجراوي، صفحة 63):

بَنِي عَامِرٍ أَنْتُمْ صَمِيمٌ فَصَمِّمُوا إِلَى الْمَوْتِ تَصْمِيمُ اللَّيْثِ الْحَوَادِرِ
وَلَا تَتَوَانُوا فِي حُطُوطِ نُفُوسِكُمْ فَإِنَّكُمْ أَهْلُ التَّهْيِ وَالْبَصَائِرِ

وتلك التي صاح بها عبد المؤمن بن علي مستنفرًا أيضا القبائل الهلالية (المراكشي، صفحة 294. 295):

أَقْبِمُوا إِلَى الْعَلْبَاءِ هُوجَ الرِّوَا حِلِ وَقُودُوا إِلَى الْهَبَجَاءِ جُرْدَ الصَّوَاهِلِ
وَقُومُوا لِنَصْرِ الدِّينِ قَوْمَةَ تَائِرِ وَشُدُّوا عَلَى الْأَعْدَاءِ شَدَّةَ صَائِلِ
فَمَا الْعِزُّ إِلَّا ظَهْرُ أَجْرَدِ سَابِحِ يَفُوتُ الصَّبَا فِي شَدِّهِ الْمُتَوَاصِلِ
وَأَبْيَضَ مَأْثُورٍ كَأَنَّ فِرْنَنْدَهُ عَلَى الْمَاءِ مَنْسُوجٍ وَلَيْسَ بِسَائِلِ
بَنِي الْعَمِّ مِنْ غُلْيَا هَلَالِ بْنِ عَامِرِ وَمَا جَمَعَتْ مِنْ بَاسِلٍ وَابْنِ بَاسِلِ
تَعَالَوْا فَقَدْ شُدَّتْ إِلَى الْغَزْوِ نِيَّةُ عَوَاقِبُهَا مَنْصُورَةٌ بِالْأَوَائِلِ

ولم يقتصر دور الشعر على الدعوة إلى جهاد الصليبيين فحسب وإنما استعان به الخلفاء أيضا لرد الفتن التي كان يشتعل فتيلها بين الآونة والأخرى في المغرب والدعوة إلى التلاحم والسلم، فلما قدم قرقوش الأيوبي بإيعاز من صلاح الدين الأيوبي إلى إفريقية، وحاول مع ابن غانية الذي كان يمثل بقايا المرابطين إشعال نيران الفتنة والحرب بين القبائل خاصة بني سليم (بدوي ي.، صفحة 69. 70)، أرسل إليهم المنصور رسالة يدعوهم فيها إلى عدم مطاوعة قرقوش فيما يهدف إليه والتمسك بالدين، وراح يذكرهم بعلاقة النسب التي تجمعهم بهم من النبي ﷺ حتى لا يرغموه على رفع السيف ضدهم والاحتكام إليه.

فأنشد في رسالته قائلًا (التلمساني، ج3، صفحة 102. 103):

يَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمَرْجِي مَطِيَّتَهُ عَلَى عُدَافِرَةٍ تَشَقَّى بِهَا الْأَكْمُ
بَلِّغْ سُلَيْمًا عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ بِهَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الرَّحْمَنُ وَالرَّحِيمُ
يَا قَوْمَنَا لَا تَشْبُوا الْحَرْبَ إِنْ حَمَدَتْ وَاسْتَمْسِكُوا بِعُرَى الْإِيمَانِ وَاعْتَصِمُوا
كَمْ جَرَّبَ الْحَرْبَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْقُرُونِ قَبَادَتْ دُونَهَا الْأُمَمُ
حَاشَا الْأَعَارِبُ أَنْ تَرْضَى بِمَنْقَصَةٍ يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَرَاهُمْ عَلِمُوا
يَقُودُهُمْ أَرْزَمِي لَا خَلَاقَ لَهُ كَأَنَّهُ بَيْنَهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ عِلْمُ

اللّٰهَ يَعْلَمُ أَنِّي مَآ دَعَوْتُكُمْ
دُعَاءَ ذِي قُوَّةٍ يَوْمَآ فَيَنْتَقِمُ
وَلَا جَأَتْ لِأَمْرٍ يُسْتَعَانُ بِهِ
مِنَ الْأُمُورِ وَهَذَا الْخَلْقُ قَدْ عَلِمُوا
لَكِنِّ لِأَجْزِي رَسُولَ اللَّهِ عَنْ نَسَبٍ
يُنْمَى إِلَيْهِ وَتُرْعَى تِلْكَمُ الدِّمَمُ
فَإِنْ أَتَيْتُمْ فَجَبَلَ الْوَصْلُ مُتَّصِلُ
وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَعِنْدَ السَّيْفِ تَحْتَكُمُ

كما واكب الشعراء الفتوحات التي خاضها الخلفاء فكانت تلك المناسبات السعيدة فرصة لتمجيد انتصارات المسلمين وتحقير شأن العدو الذي لحقت به الهزائم بفضل شجاعة وبسالة الجنود الموحدين والخليفة القائد .

وكانت كل هذه القصائد تطفح بالمعاني الدينية وتعتبر كل انتصار للجيش الموحدى هو نصر للإسلامى، وكل هزيمة لحقت بالكفار خسارة للشرك.

وفي سنة 569هـ أمر الخليفة يعقوب بفتح السبطاط بالأندلس وغزو ابن أذفون شالبيوج الذي نقض عهد الصلح بينهم وتكرر لصنيع الموحدين معه حين وقفوا جانبه ضد صاحب طليطلة (المريني، 20110، ص 274)، فتجمعوا في إشبيلية وخرجوا للجهاد ضد الكفار، وكان النصر حليفهم، فهب الشعراء منشدين ومهللين بهذا النصر العظيم ضد النصارى، وكان من بينهم الشاعر الجراوى الذي قال في تلك المناسبة (الجراوى، صفحة 69):

عَنْ أَمْرِكُمْ يَتَصَرَّفُ الثَّقَلَانِ
وَبِنَصْرِكُمْ يَتَعَاقَبُ الْمَلَوَانِ
وَمَا يَسُوءُ عَدُوَّكُمْ وَيَسُرُّكُمْ
تَتَحَرَّكُ الْأَقْلَاقُ فِي الدُّورَانِ
جَاهِدْتُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ
وَمَخَضْتُمْ الرَّجْفَانِ وَالْحَقْفَانِ
وَعَزَّاهُمْ الدِّينُ الْحَنَفِيُّ
الَّذِي كُتِبَ الظُّهُورُ لَهُ عَلَى الْأَذْيَانِ
كَتَبَ إِلَهُكُمْ فُتُوحًا فِي الْعِدَا
هَذَا لَهَا وَسِوَاهُ كَالْعُنُوانِ
هَذَا مَقَامُ الْمُصْطَفَى يَا فُوزَ مَنْ
حَارَ النَّيَابَةَ فِيهِ عَنْ حَسَانِ
مَنْ يَعْرِفُ الرَّحْمَنَ حَقًّا يَعْتَرِفُ
بِحُقُوقِهِ خَلِيفَةَ الرَّحْمَنِ

وأنشد أبوعلی عمر بن الأشیری (التجیبي، صفحة 60):

دَارَتْ رَحَا الْمَلَكَاتِ بِالسَّبْطَاطِ
وَسَطًا بِمَا رَيْبُ الزَّمَانِ السَّاطِي
وَأُهِنَ فِيهَا الشِّرْكَ أَيَّ إِهَانَةٍ
شَفَعَتْ كَرِيهَةً هِيَاطُهَا بِمِاطِ

وفي عام 591هـ وقعت غزوة الأرك الشهيرة، وأبدى الجيش الموحد شجاعة وبسالة في القتال انهزم على إثرها جيش ألفونسو إذ أسفرت تلك المعركة عن حصيد من القتلى أما ملك قشتالة فخرج هاربا نحو طليطلة. "ومن ثم لقب أبو يوسف يعقوب الموحد بالمنصور(المربني ع.، صفحة 280)".

ولما عاد المنصور إلى إشبيلية "والنصر يتهلل فوق جبينه والظفر يضحك مع شماله ويمينه (المراكشي،، 1985، صفحة 222)"، توافد عليه الشعراء مهئين ومباركين له هذا النصر العظيم الذي يشبه في أهميته وظروفه معركة الزلاقة.

فأنشده الجراوي القصيدة التي قال في مطلعها(المراكشي،، 1985، صفحة 222):

هُوَ الْفَتْحُ أَغْيَا وَصَفُهُ النَّظْمُ وَالنَّشْرُ وَعَمَّتْ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ بِهَا الْبُشْرُ

وقال واصفا خسارة جيش العدو وكثرة قتلاهم(المراكشي،، 1985، صفحة 222):

لَقَدْ أَوْرَدَ الْأَذْفُونُ شُشَّ شِيعَتِهِ الرَّدَى وَسَاقَهُمْ جَهْلًا إِلَى الْبُطْشَةِ الْكُبْرَى

حَكَى فِعْلَ إِبْلِيسَ بِأَصْحَابِهِ الْأَلَى تَبَرَّأَ مِنْهُمْ حِينَ أَوْرَدَهُمْ بَدْرًا

أُلُوفٌ غَدَتْ مَاهُولَةً بِهَمِّ الْفَلَا وَأَمْسَتْ خَلَاءَ مِنْهُمْ دُورُهُمْ قَفْرًا

وَدَارَتْ رَحَى الْهَيْجَا عَلَيْهِمْ فَأَصْبَحُوا هَشِيمًا طَحِيًّا فِي الصَّبَا يُذْرَا

وقال شامتا بالأذفونش الذي كان يعتقد أن الأندلس ستكون ملكا له، فكانت نتيجة اغتراره أنه لم ينل منها شبرا واحدا (المراكشي،، 1985، صفحة 222):

وَكَاَنَّ يَرَى أَقْطَارَ أَنْدَلُسٍ لَهُ مَتَى يَرُمُ لَمْ يُخْطِ بِأَسْهُمِهَا قُطْرًا

فَسَلَا لَهُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ عَنِ الْمَتَى فَمَا يُرْتَجَى مِمَّا تَمْلِكُهُ شِبْرًا

فَكَيْفَ رَأَى الْمُعْتَرُّ عُقْبَى اغْتِرَارِهِ وَكَيْفَ رَأَى الْغَدَارُ فِي غِيَةِ الْغَدَارِ

وأنشده الشاعر الإشبيلي ابن حزمون سينيته التي يقول فيها(المراكشي، صفحة 370):

حَيْثُكَ مُعْطَرَةُ النَّفْسِ نَفَحَاتُ الْفَتْحِ بِأَنْدَلُسِ

فَدَرِ الْكُفَّارَ وَمَاتَمَّهُمْ إِنَّ الْإِسْلَامَ لَفِي عُرْسِ

أَمَامَ الْحَقِّ وَنَاصِرِهِ طَهَّرْتَ الْأَرْضَ مِنَ الدَّنَسِ

وَرَفَعْتَ مَنَارَ الدِّينِ عَلَى عُمْدٍ شُمِّ وَعَلَى أُسُسِ

وَصَدَعْتَ رِذَاءَ الْكُفْرِ كَمَا صَدَعَ الدِّيْجُورَ سَنَا قَبَسِ

ولم يتخلف أبو حفص بن عمر الأغماتي عن الإشادة بما فعله الخليفة في هذه المعركة ووصف أجواء النصر التي حظي بها المسلمون، فقال (المريني ع.، صفحة 286. 287):

وَفَتَحَ مِثْلَمَا انْفَتَحَتْ كِمَامٌ وَشَقَّتْ عَنْ صُدُورِ مَهَا صِدَارُ
وَأَعْلَامٍ بَنَصْرِكَ خَافِقَاتٍ لَهَا فِي كُلِّ جَوٍّ مُسْتَطَارُ

وأضاف واصفا الهزيمة النكراء للعدو الذي أراد الفرار إلا أنه كان فريسة سهلة للجيش الإسلامي (المريني ع.، صفحة 287):

وَكَمْ رَامُوا الْفِرَارَ مِنَ الرِّزَايَا وَلَكِنْ أَيْنَ مِنْ أَجْلِ فِرَارُ
تُدَارُ عَلَيْهِمْ حُمُرُ الْمَنَايَا بِكَأْسٍ فِيهَا عَقْرٌ لَا عُقَارُ
إِذَا مَا اللَّيْثُ أَصْبَحَ فِي مَحَلِّ فَمَا لِطَرِيدَةٍ فِيهِ قَرَارُ

هذا قليل من فيض ما أنشد وتغنى به الشعراء في مناسبات سياسية عديدة، ولا شك أن هؤلاء الشعراء أدوا دورا محوريا في بث روح المقاومة في نفوس المحاربين وإلهاب حماسهم، سواء تعلق الأمر بالفتن الداخلية التي وقعت في المغرب أثناء الحكم الموحد أو الحروب الخارجية المرتبطة بالجهاد ضد الكفر.

لقد أبدع الشعراء في وصف انتصارات حكامهم ووضعها في سياقها الديني الذي يعد أهم ركيزة استندت إليها السلطة في حكمها، فكان طافحا بالمعاني الدينية ومتشعبا بالروح الإسلامية..،

ولا شك أن هذا الاتجاه الديني في الشعر جعله ذا خصائص فنية مميزة لا يسع المقام للتطرق إليها هنا، ويبقى على الدارسين التركيز عليها والتطرق إليها من زوايا عديدة ومختلفة.

4. خاتمة:

بناء على دراستنا التي تطرقنا فيها إلى الشعر السياسي في المغرب خلال عصر الموحدين والتي تناولنا فيها البيئة السياسية والثقافية لحركة الموحدين وحللنا فيها أيضا نماذج شعرية متعددة ومختلفة، يمكن أن نخلص إلى جملة من النتائج نلخصها في النقاط الآتية:

- اعتناء الدولة الموحدية بالشعر والشعراء ساهم في إنعاش الشعر السياسي والتشجيع على إنشاده والتغني به مقارنة بالأغراض الأخرى.
- قيام الموحدين على أساس ديني مختلف يستمد مبادئه من مذاهب دينية مختلفة خلق تعالقا بين السياسة والدين، وقد انعكس هذا التعالق في الشعر فكانت أهم مرجعيات الشعر السياسي دينية أيضا.
- لقد ركز الشعراء في مدائحهم على الأفكار التي كان يؤمن بها الخلفاء واستعملوها وسيلة لبلوغ السلطة، ومن تلك الأفكار الإمامة والمهدية ووجوب طاعة الخليفة والدعوة إلى الحق (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

- لم يبرز الشعر السياسي في غرض محدد وإنما امتزج بالأغراض الشعرية الأخرى، فجاء معظمه في شكل مدائح أو وصف للحروب والفتن ودعوة للجهاد.
- لم يجسد الشعر القيمة الفنية الجمالية فحسب، وإنما جسد أيضا قيمة تاريخية سياسية مهمة من خلال ما نقله لنا من أحداث ووقائع.
- أثر الطابع السياسي للقصيدة على اللغة الشعرية فكانت أساليب الشعراء عموما مباشرة، ومفرداتهم سهلة ومستمدة من المعجم اللغوي الديني .

5. قائمة المراجع:

— القرآن الكريم

- ابن عبد الملك المراكشي، (د.ت، ج1)، الذيل والتكملة، (تحقيق: مُحمَّد بن شريفة)، دار الثقافة، بيروت.
- ابن عذاري المراكشي، (1985)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (تحقيق: مُحمَّد إبراهيم الكتاني، مُحمَّد زهير، مُحمَّد بن تاويت، عبد القادر زمامة)، ط1، دار الغرب الإسلامي. بيروت، لبنان
- أبو العباس أحمد بن عبد السلام التادلي الجراوي، (د.ت)، الديوان، د.ط، سلسلة ذخائر التراث الأدبي المغربي، المغرب.
- أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي، (1939)، زاد المسافر وغرة محيا الأدب، (تحقيق: عبد القادر محداد).
- أحمد بن مُحمَّد المقرئ التلمساني، (د.ت، ج4)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، (تحقيق: إحسان عباس).
- حجار طاهر، (2014)، الشعر السياسي في العصر العباسي، د.ط، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت.
- بدوي عبد العزيز، (1983)، محاضرات في الشعر المغربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية.
- عبد الله كنون الحسني، (1971)، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- عبد الواحد المراكشي، (1963)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، (تحقيق: مُحمَّد سعيد العريان)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
- غنيمي الوردي، (2016)، بنية الخطاب الشعري الموحد ديوان الشاعر الجراوي أمودجا جامعة الحاج لخضر، باتنة 1، الجزائر.
- الطاهري الحسن، (2005)، الإبداع الموحد بين شعرية النص وأدبية التلقي، د.ط، منشورات حلقة الفكر المغربي المعاصر، فاس، المغرب.

- المريني عبد الحق ، (2010)، شعر الجهاد في الأدب المغربي من عهد الأمير يوسف بن تاشفين المرابطى حتى عهد السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام العلوى، ط2، منشورات زاوية مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب.
- محمد الطرباق اليدري، (2021)، الفكر السياسى الإسلامى فى المغرب خلال عصر المرابطين والموحدين، د.ط، ركاز للنشر والتوزيع، الأردن، أريد.